مُقَدِّمَـة

إن التعامل مع النص الشعري ليس مجرد تعامل مع تراكيب لغوية داخل إطار موسيقي وحَسْب ، وإنما هو تعامل مع نظام متكامل يقوم على مجموعة من التوازنات .

فيُنظَر إلى وحدات النص وعناصره باعتبارها دوائر يحتوي بعضها بعضاً احتواءً متكافئاً ، فتحتوي الألفاظ المعاني ، احتواءً يتكافأ مع احتواء البيت لهذه الألفاظ ، وتحتوي الأبيات موضوع القصيدة كما يحتوي الموضوع تلك الأبيات ، وأن تكون في ذلك كله معبرة عن صاحبها ، مؤثرة في غيره من جمهور المتلقين .

ونظراً لتعدد زوايا التعامل مع النص الشعري ، فقد جاءت الدراسات النقدية في اتجاهات شتي ؛ فمنها ما تعامل مع بنية النص ، ومنها ما تعامل مع البعد الموسيقي للشعر، و ثَمَّ دراسات أخري كان هدفها رصد تأثير النص على المتلقي ، و دراسات كان هدفها المبدع وأسلوبه في التعامل مع النص ... إلخ .

و قد تعددت المصطلحات المستخدمة في عرف النقد الأدبي ، و قد تعددت دلالات تلك المصطلحات على أجزاء بعينها في النص الشعري بحيث أصبحت بعض هذه المصطلحات خاصة . العامة منها تنسحب مفاهيمها على مواضع مختلفة باختلاف استخدام النقاد لها واختلاف عنايتهم بدراسة زاوية معينة من زوايا عملية إبداع النص الشعري .

و كانت ثَمَّ ملاحظة ، أن هذه المفاهيم في توزعها تدور في فلك مفهوم واحد ، هو مفهوم التوازن . ولذا جاءت هذه الدراسة كمحاوله لوضع المفهوم الذي يجمع شتات النص الشعري بأبعاده المختلفة ؛ اللفظية والمعنوية والموسيقية ، وكذلك الأبعاد الإنسانية المتمثلة في المبدع والمتلقي ، فكان المفهوم هو " التوازن " .

وقد تعددت الدراسات التي تناولت عملية إبداع النص الشعري ، وقد ورد في بعضها لفظ التوازن صراحة ، وبعضها الآخر دارت أجزاؤها حول معنى التوازن .وغيرها من الدراسات التي تناولت العملية الإبداعية ،وجاء كل منها في زاوية من زوايا هذه العملية والتي دارت معانيها حول مفهوم التوازن .ولكن لم تقم دراسة منها بتحديد مفهوم التوازن كما لم تجمع دراسة من هذه الدراسات أطراف عملية إبداع النص الشعري في إطار واحد؛ هوإطار التوازن .

وجاءت هذه الدراسة في مقدمة وخمسة فصول ؛ أما الفصل الأول فيدور حول مفهوم التوازن ، وذلك بتحديد هذا المفهوم من خلال المفاهيم التي تعامل بها النقاد مع النص الشعري.

وقد انقسمت هذه المفاهيم قسمين :

أولهما : المفاهيم التي قاربت معنى التوازن ؛ مثل مفاهيم المساواة ، الاعتدال ، التكافؤ ، المشاكلة ، التماثل .... إلخ .

وثانيهما : مفاهيم اختلال التوازن ؛ والتي دارت حول المفاهيم التي جاءت لتصف جوانب القصور التي تصيب عملية إبداع النص الشعري ، مثل مفاهيم الاختلال ، الحشو ، القلق ، التخليط ، التنافر... إلخ .

ثم يأتي مفهوم التوازن ليجمعها في إطار واحد ، يشمل عملية إبداع النص الشعري من زوايا جميعها .

أما الفصل الثاني فقد جاء ليصف حالة التوازن بين المبدع والنص ، على اعتبار أن المبدع هو أول من يتعامل مع النص الشعري تأليفاً وإبداعاً . حيث يصف المراحل التي يمر بها المبدع حتى يصل إلى المرحلة التي يصبح معها المبدع مهيئاً لكتابة النص فعليا . ثم ما

يتلو ذلك من انعكاس حياة المبدع وثقافته على معاني النص الشعري . وكذلك أسلوب المبدع في التعامل مع النص أثناء عملية الكتابة والتأليف ، وكذلك المحركات والدوافع التي تجعل المبدع في حالة توازن مع نصه .

ثم يأتي دور المتلقي في التعامل مع النص الشعري ذلك المتلقي الأَوَّلِيّ ؛ وهو الذي لم تسبقه دوافع فنية معينة أو منهجية في تعامله مع النص الشعري ، و إنما يتعامل مع النص بطريقة تلقائية تظهر في ردود أفعاله ؛ و التي تأتي في صور مختلفة ، و كان هذا هو موضوع الفصل الثالث ، وقد أطلق عليه الباحث (الأداء النصي المرتد) ، حيث يؤدي المتلقي النص أداء يتوازن مع أداء المبدع له، فإذا كان المبدع يؤدي النص كتابة وإبداعاً ، فإن المتلقي يؤدي النص إنفعالاً وتأثراً .

ولا يتحقق هذا التأثر إلا إذا توفرت عدة توازنات بين المبدع والمتلقي ، ومن ثم بين النص والمتلقي .

قد انحصرت هذه التوازنات في التوازن النفسي ، والتوازن الثقافي الاجتماعي والتوازن الزمني ، وكذلك التوازن الفني الموضوعي . وتختلف قوة هذا (الأداء النصي المرتد) تبعاً لتوفر هذه التوازنات وكذلك تبعاً لدرجتها وقوتها .

أما الفصل الرابع فقد انتقل بالأداء النصي المرتد إلى مرحلة التلقي المُمَنْهج ؛ ومن ثم من المتلقي أو القارئ الأَوَّلي إلى القارئ المتخصص ، الذي يضع اشتراطات فنية معينة يقبل من خلالها النص ، ومن ثم يتوازن معه . وهذه الاشتراطات قد وضعها إما نقاد أو علماء لغة أو مؤرخون ... إلخ .

ولذا فقد دار هذا الفصل حول مجالات التوازن النقدي أو التوازن المنهج ، فكان منها : التوازن الموسيقي ، و التوازن اللفظي ، والتوازن الفني ، والتوازن الأخلاقي ، ثم يأتي

التوازن الشخصي الذاتي والذي يصف الحالة التي يخرج فيها هؤلاء المتخصصون من حيز التبرير الفني لقبول النص ، إلى الحكم الذاتي الذي يخضع لعوامل شخصية بين صاحب النص والناقد أومَن في درجته من التخصص . فكل واحد منهم يتوازن مع النص أو يرفضه تبعاً لاعتبارات فنية وضعها هو تبعاً لمجال تخصصه وموضوع دراسته .

ثم يأتي الفصل الخامس ليقدم نماذج تطبيقية لعملية التوازن ، وينقسم هذا المجال التطبيقي قسمين : أما الأول : فهو الذي يقوم على دراسة النص الشعري المرتبط بخبر أوقصة ، ومن خلاله تتضح الاعتبارات الخارجة عن فنيات النص الشعري . حيث يكشف الخبر عن الدافع من عملية إبداع النص ، وكذلك يبين عملية (الأداء النصي المرتد) من خلال شخصيات الخبر التي قامت بعملية التلقي . وهذا جانب من جوانب النص المرتبط بخبر .

أما الجانب الأخر فهو المتعلق بالنص الذي يحمل خبراً في ذاته ، حيث يحاول المبدع من خلاله إحداث التوازن بين فنيات الشعر ، وفنيات الخبر حتى تكتمل صورة الحدث في إطارها الشعري .

أما القسم الثاني فهو النص الشعري غير المقيد بخبر ، وهو النص الذي يعتمد على توازنه في ذاته من خلال فنيات الشعر ، دون أن يقيد خبر أو قصة حركة الشاعر داخل النص الشعري . وكان نموذجه نصاً من شعر المتنبي ، حيث تأتي دراسة هذا النص لتكشف عن الصياغات التي تصل بالنص ليصبح نموذجاً لحالة التوازن .

وبعد ... فإن كان سداد فمن الله وحده .

هذا وبالله التوفيق ،،،

أبوزيد بيومي